مقام فاس

محمد القيسي

- أ -

تلكَ فَاسُ القَديمةُ تَفتحُ أبوَابَها
وَتُسمِّي الحياةْ
قَطَراتِ نَدىً
لَيْلَكاً بَعْثَرَ أَلْوانَهُ،
الضَوْءُ عُرْسُ نَعيمٍ عَلى الأَرضِ
وَالظِلُّ أُنثى
تَرَقْرَقَ مَاءُ الهنَاءَةِ في حِجْرِهَا.
صَمتُها الكَنَسيُّ يَحُفُّ بنا
عَابرَيْنِ وَحيدَيْنِ في مَلكُوتٍ مِنَ الزَنَقَاتِ.
وَهَا جَامعُ القَرويّينَ،
مَثوىً لأَندلُسِ الغَاربينَ،
جَلسْنَا إلى ظِلِّه،
غَارِفَيْنِ مياهَ الكِتَابَةِ وَالزُخْرُفَاتْ
غَارِقَيْنِ بعيداً
إلى أَسْرِ هَذا الجَلالِ اليَتيمِ،
نُرَمِّمُ أَحزانَنَا
حَيثما التَفَتَ القَلبُ، أَو
أَنَّتِ الريحُ،
فَوقَ بسَاطِ الجِهَاتْ.

هَلْ نُرَنِّمُ ضَوْءاً تَلاشَى
نُسَلْسِلُ أَوتَارَ حَدّ عَتمتِه؟
مَنْ سَيكهنُ أَينَ تَحطُّ القَبَائلُ ثانيةً،
وَإلى أَيِّ نَجدٍ نَقومُ،
نُكفكفُ يَوماً غزيرَ الشبابيكِ،
يَوماً مِنَ المُوجِعَاتِ تفتَّحَ عنَّا؟

سَأُعطي لحُزْنيَ عُمراً جَديداً
عَلى بَابِ فَاسٍ
وَشَمساً لبَيتيَ البَعيدِ
وَأُعطي يَدي
لحَبيبي
ونَمشي.

يَمرُّ بنا إبنُ رُشْدٍ،
يَمرُّ ابنُ خلدونَ،
وَالشيخُ كانَ وحيداً يمرُّ[1]،
رَنينُ البَعيدِ بفضَّةِ أقداسِه،
وَنَشيجٌ عَلى حَافَّةِ السَّاحَةِ المغربيَّةِ كانَ،
وَكانَ ضَجيجٌ،
وَجَمهرةٌ،
وَجُموعٌ تمرُّ،
تَمرُّ السُلالاتُ عَبْرَ مَتَاهِ الزَمانِ،
نَمُرُّ،
نَسيجٌ شَفيفٌ مِنَ الغَيمِ فَاسُ،
مَتاهٌ لعائلةِ الأوَّلينَ،
مَتاهٌ لآخرِ أبنائِها

أَلحجارةُ بنتُ البلاغةِ
تَمضي إلى أينَ هَذي الأزِقَّةُ!
وَالفَتَحاتُ خُطىً تنتهي
أَلمنازلُ قيلَ جُفُونٌ مُفَتَّحَةٌ،
وَانْغِلاقٌ عَلى الشَهَواتِ.
أُحاوِلُ بَيْنَا أُفكِّكُ لُغْزِيَ لَمْسَ الأَبدْ

فَاسُ ظِلُّ الإشَارةِ وَالمشْرَبيَّاتِ،
فَاسُ فَرَاشٌ يُلوِّنُهُ مَرَضي
وَبَقايا جَسَدْ.

يَفضَحُ الموتُ أَوراقَنا
في خَريفِ الذُبولِ الطَويلِ، فَهلْ قُرْطُبَهْ
عَرَّجتْ مِنْ مَدافِنِهَا لِترى
دَمعَةَ السَالكينَ
إلى قَارَّةٍ يَجهلُونَ

فَلا يَهتدُونَ
إلى مَرْكَبَهْ!؟

- ب -

أُمُّ دِرْمَانَ قُربي سِوَارٌ مِنَ القُدْسِ،
إفريقيَا مِنْ مَرايَا
وَعَاجِ
تَثَنَّى عَلى سَاعِديها النَخيلُ
فَأَينعَ جُغرافيَا مِنْ نَشيدٍ
وَبُنٌّ مُصَفًّى يَسيلُ عَلى الشَّفتَيْنِ
وَكَوَّرَ رُمَّانَتَيْنِ
وَهَلَّلْ

أَيُّ مِسْكٍ يَضُوعُ
وَأَيُّ هَوىً يا ضُلوعُ
وَصَنْدَلْ!

وَامُّ دِرمَانَ جَدْوَلْ
وَعَصافيرُ تَدْرُجُ فَوقَ أَصَابِعِ كَفَّيَّ
صَفْصَافَةٌ بأَريجٍ،
تَدَفَّقَ مِنْ شُومَرٍ
وَبَسَاتينِ لوزٍ
وَمُخْمَلْ

وَامُّ درمَانَ قُرآنُ صَفْوٍ مُرَتَّلْ
فُسْتُقٌ ناعمٌ
وَهِلالَانِ مِنْ أَبنوسٍ
وَمَوْجُ حَريرٍ
تَهَدَّلْ

حَولَ فَاسِ القَديمةِ، طَوَّقَ رُوحي
فَكيفَ أَلُمَّ نُثَاري
وَأَحْتَملُ اليَاسَمينَ
وَأَرْحَلْ
دُونَ فَاسِ القَديمة،
يا جَامعَ القَرويّينَ، المُريدونَ حَوْلَكَ،
ضَلَّتْ بهِمْ سُبُلُ العِشقِ،
ضَلَّتْ طَريقُ المُشَاةِ إلى البيتِ
قَبلَ الضُحَى.

يَصْفِنُ النَاسُ فينا
وَيَصفنُ فينا الغِيابُ
وَهَذي القبابُ
عَلاماتُ مَنْ ذَهَبوا
يَصْفِنُ التَعَبُ

آه تَزْحَمُني رَغْبَةٌ
أَنْ أَقومَ إلى رَكْعَتَيْنِ
فَهلْ أَتوضَّأُ بِشُعاعِ يَديكِ؟
سَتَشْفَعُ لي
رِجْفَتَانِ تَحلاَّنِ فيَّ حُلولَ كَلامِكِ
يَشْفَعُ أَسلافُنا
لجنونٍ تأَخر عِشْرينَ عَاماً
جُنونٍ مُغَنٍّ
تُطَوِّحُهُ نَكْهَةُ الشَايِ أَخضرَ «بِالزَّافِ»[2]
أَخضرَ
نَدْيَانَ
مثلَكَ
قَالَ:

مَقَامي هُنا
وَأَنا العَابرُ الأَبديُّ المُقيمُ عَلى حَيْرَةٍ
أَتَساقى الهوَى وَحَبيبي
تُقايَ ذُنوبي
وَبَيتي مَنْفَايَ
وَالريحُ كُوبي.

فاس ٢ نيسان ١٩٩٤

(١) أعني محي الدين بن عربي لحظة رحيله عن فاس في الطريق إلى الشام حيث ينام الآن.

(٢) عامّيّة مغربيّة وتعني كثير.